مقابلة مع باتريك سيل.. الصحافي البريطاني ومؤلف السيرة الذاتية لحافظ الأسد

حرب لبنان والعراق اثبتتا تدهور الردع الامريكي والاسرائيلي.. هناك تراجع اخلاقي وعرب اليوم اكثر ثقافة ومالا صدقوا الاسد.. لم يتغير شيء على الموقف السوري.. لماذا لا تفهمون انه حان الوقت لتخفيض مستوى الكراهية

■ «المشكلة هي أنه لا توجد مرجعية قيادية في اسرائيل. الجميع يقرأون التقارير حول التحقيقات والفساد، وهذه مسألة فظيعة لانكم قد تضيعون فرصة استثنائية لدفع السلام الى الأمام. لقد نشأ وضع غير منطقي يمد فيه السوريون يدهم للسلام بينما لا يوجد في اسرائيل شريك لهذا السلام».

باتريك سيل، الصحفي البريطاني المخضرم ومحلل شؤون الشرق الاوسط والكاتب الرسمي لسيرة حافظ الأسد، لا يتنازل. هو على قناعة أن أمام اسرائيل فرصة ممتازة للتوصل الى اتفاق سلام مع سورية. إلا أنها تحتاج فقط من اجل ذلك الى قيادة مع قوة ورؤيا.

وعليها ايضا أن تبدأ بالتفكير بمصالحها وليس بمصالح الامريكيين، وأن تكون مستعدة للتسوية وعدم الاصرار على ما هو هام جدا للسوريين. والتوقف عن القيام بالحيل والتقلبات في الشرق الاوسط مثل الفصل بين سورية وايران.

عدا عن ذلك ليست هناك مشكلة. الأسد ينتظر ويده ممدودة.

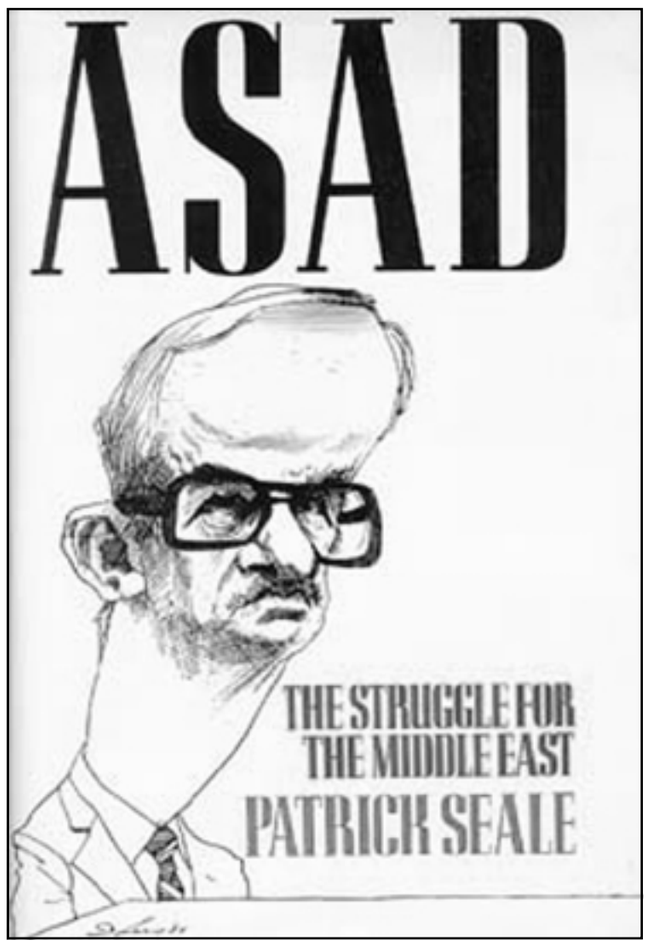

غلاف الكتاب

– رئيس شعبة الاستخبارات العسكرية «أمان» اللواء عاموس يادلين، يدعي أن من الصعب التقرير اذا كان بشار الأسد يريد السلام فعلا. الامر الواضح فقط هو أن السوريين يريدون استئناف المفاوضات مع اسرائيل من اجل الخلاص من العزلة.

■ هذا خطأ من جانبكم. كل المؤشرات تدل على جدية عالية من سورية للدخول في مفاوضات حقيقية. خذ مثلا مقابلة وليد المعلم الأخيرة مع «واشنطن بوست». فقد قال صراحة أن 90 في المئة من الامور الخلافية قد حلت منذ زمن في المفاوضات التي جرت، ولذلك أنا اعتقد أن الحل في نظري بسيط نسبيا. هذه ليست مشكلة معقدة مثلما هي الحال مع الفلسطينيين. هذا يلزمكم بالطبع باعادة المناطق التي احتلت في 1967، وبعد ذلك يجب أن تكون هناك اتفاقات حول الترتيبات الأمنية بين الدولتين. ولكن هذه امور قد جرى الاتفاق عليها مع اسحق رابين وشمعون بيرس وافق عليها عندما خلفه في المنصب. على الاسرائيليين أن يدركوا ويُقدروا الايجابيات التي ستترتب على اتفاق السلام مع سورية أكثر من خشيتهم من المخاطر. اسرائيل أمام خيار واسع المغزى ولكن ليس من المؤكد أن حكومة اولمرت مستقرة وقوية بدرجة تكفي لمواجهة هذا الخيار: إما الانخراط في الساحة الشرق اوسطية وإما الانحسار خلف أسوار الكراهية. هذه هي المسألة الحقيقية.

– اولمرت يعتقد أنه لا جدوى للشروع في المفاوضات السلمية من دون موافقة الولايات المتحدة.

■ وأنا اعتقد أن هذا خطأ. أنا اعتقد أن على اسرائيل أن تفعل ما هو جيد لها، وليس لمصلحة الولايات المتحدة، كما أنه يصعب أن نتوقع أن تقوم واشنطن بدفع السلام الى الأمام في العامين القريبين.

– ما هو رأيك حول مؤتمر مدريد الثاني؟

■ مؤتمر هام جدا. للمرة الاولى بعد سنوات كثيرة نرى سوريين واسرائيليين ومصريين وفلسطينيين يجلسون معا، ويقترحون حلولا عملية لدفع عملية السلام. المشكلة هي أن السوريين يقولون صراحة انهم معنيون بالسلام، والاسرائيليون متفاجئون: فجأة لديهم شريك. كل العرب، الجامعة العربية وسورية يرغبون في السلام واسرائيل تدخل في حالة دفاعية وكأننا في ايام 1948، وأنه ليس هناك عرب يرغبون في السلام.

– أي تأثير لحرب لبنان وحرب العراق على العملية؟

■ العبرة المستخلصة من هاتين الحربين واضحة جدا: هناك تدهور في قدرة اسرائيل والولايات المتحدة الردعية. هناك ايضا ازمة خطيرة في المرجعية والمصداقية. ومن ضمنها المصداقية الاخلاقية. اسرائيل تعاني من ضعف متزايد في مجال الضربات الصاروخية، والحرب غير المتماثلة. أي، حرب العصابات. كل هذه تشير الى أن هناك تغيرات جوهرية في الوسط الاستراتيجي الاسرائيلي تحدث في المنطقة. أنا أعود وأكرر لرفاقي الاسرائيليين دائما أن العرب اليوم أكثر ثقافة وثراء وتسلحا وتطورا من الماضي. في المقابل الاسلام المتطرف في حالة صعود، وصورة اسرائيل الايجابية آخذة في التصدع في السنوات الأخيرة. في اوروبا، من دون أي شك، وكذلك ايضا في أجزاء من الولايات المتحدة. بناء الجدار الفاصل وآلاف السجناء الفلسطينيين والتصفيات المركزة وتدمير المنازل وصور الاوضاع الصعبة في المناطق تصب الزيت على النار. الصورة هي شيء هام جدا، لانه عندما تكون اسرائيل في ضائقة مع صورة متدنية سيتردد الآخرون في مساعدتها. على ضوء كل هذه الاسباب معا أنا اعتقد أن من الأجدر باسرائيل جدا أن تفكر بالسلام مع الجيران بجدية حتى تخرج السم الذي يدمر المنطقة. هذه رسالة بسيطة، وأنا لست الوحيد الذي أقول ذلك، ولكن لسبب ما لا ينفذ ذلك الى الوعي الاسرائيلي.

– أنت كتبت رسالة مفتوحة نشرتها بعد فشل محادثات جنيف عبرت فيها عن خيبة أمل كبيرة من الأسد وقلت له برقة أن الوصول الى الوعي الاسرائيلي واقناعه يستوجب تقديم بعض اللفتات مثلما فعل السادات مثلا.

■ أنا لم أعد أذكر ما كتبت. كتبت منذئذ الكثير من المقالات. في كل الاحوال من الخطأ أن تتوقع من خصمك أن يُقدم تنازلا كبيرا قبل أن تبدأ المفاوضات. السوريون أرسلوا رسالة تلو الاخرى. كنت في دمشق قبل ستة اسابيع، والرئيس الأسد ظهر في مأدبة علنية كبيرة وكرر في خطابه كلمة السلام على الأقل ست مرات. أنا أذكر جيدا انه أنهى الخطاب بعبارة جميلة: جيلي يبحث عما يمكنه أن يسهم به للتركة التي أعطاها لنا أهلنا، والتركة التي نريد أن نُخلفها من ورائنا هي صنع السلام. كان هناك على الأقل 600 ضيف جاؤوا للاستماع حول اقتصاد سورية، ومع ذلك هو كرر عباراته بلا كلل أو ملل. الأسد معني بالسلام.

باتريك سيل متزوج من رنا قباني، ابنة سفير سورية الأسبق في الولايات المتحدة. في أواخر التسعينيات، وخصوصا في عام 2000، اشتهر بفضل رحلاته المكوكية بين دمشق والقدس. سيل تنقل في تلك الفترة بين اسرائيل وسورية والتقى مع الجميع وتجول مع أوري ساغي على هضبة الجولان وأخيرا أصيب بخيبة أمل صعبة. كان من المفترض أن تنتهي الاتصالات التي جرت في عام 2000 بين اهود باراك والنظام السوري بالاتفاق على الخطوط العريضة لاتفاق السلام، ولكن في تلك الفترة جاء لقاء القمة المخيب للآمال بين بيل كلينتون والأسد بقدره وجلاله. الأسد كلف نفسه رغم مرضه بالتوجه الى جنيف ليعود بأيد فارغة بعد أن اتضح له انه لن يستطيع أن يغسلها، كما أصر، بمياه طبرية.

خلال الـ 15 سنة الأخيرة جرت اتصالات ومحادثات كثيرة. سيل يقول في مقابلته هذه: «اذا نظرت الى الأرشيفات سترى أن حافظ الأسد كان مستعدا للسلام حتى 1975. في السنوات الأخيرة من حياته كرس نفسه لمحاولة التوصل الى السلام، وقد أصيب بخيبة أمل كبيرة فعلا من نهج نتنياهو، إلا أنه لم يكل».

باتريك سيل

بشار الاسد

عندما صعد باراك الى سدة الحكم التقى سيل معه لاجراء مقابلة، وكانت هذه هي المرة الاولى التي يرى فيها الأسد متحمسا ومؤمنا بأن باراك معني بالسلام فعلا. ذلك لان السلام مع سورية ومع باقي الجيران سيوفر لاسرائيل أفضل ضمانة لأمنها على المدى الأبعد خصوصا. «لا يمكن لأي أحد آخر أن يضمن أمن اسرائيل».

– ما الذي تغير منذ دخول بشار الى منصب والده؟

■ لم يتغير أي شيء حسب رأيي.

– هل سيكون مستعدا للتسويات؟ والده وباراك فجرا كل شيء بسبب بضعة أمتار على ضفاف طبرية.

■ ما هي التسوية؟ بضعة أمتار؟ حافظ الأسد من قبل أن يموت أعطى للامريكيين وعدا بأن لا تقوم سورية أبدا باستخراج المياه من طبرية ولا تمس بجودة المياه ولا تلوثها. هو أراد فقط امكانية السباحة في البحيرة والصيد فيها حتى عمق أقل من كيلومتر. وأراد فقط أن يتمتع من طبرية مثلما كان السوريون يستمتعون بها في الماضي. يوجد لذلك مغزى رمزي وليس أمنيا أساسا. المشكلة هي أن اسرائيل تحاول دائما القيام بحيل مخادعة في المنطقة. أن تطلب من سورية مثلا الابتعاد عن ايران، أو الاعتقاد أنها قادرة على التحالف مع دول اسلامية معتدلة ضد ايران. هذه أخطاء. اعتماد سورية على ايران سيقل بوجود السلام، ولكن ليس من الممكن الفصل بين الدولتين كشرط للاتفاق. سورية وايران شريكتان منذ 1979، وهذا ليس شيئا يمكن أن يتنازلوا عنه. اسرائيل لا تستطيع ايضا أن تتوقع من دولة عربية معتدلة بأن تساعدها ضد سورية أو ايران. على اسرائيل ببساطة أن تعقد السلام مع سورية.

– سورية لن توفر أي بضاعة استراتيجية.

■ أنا لا اعتقد أن هذا ممكن، وليس على اسرائيل أن تتوقع ذلك. الأمر الوحيد الذي سيضمن أمن اسرائيل هو اتفاق سلام يعتبره الجميع سلاما عادلا.

– الوزير مئير شتريت قرر في هذا الاسبوع اقتراحا بأن تقوم سورية بتأجير الجولان لاسرائيل لمدة 25 عاما. في تقارير الاسبوع الأخير تحدثوا عن «حديقة سلام» تقام في منطقة الجولان، فهل تعتقد أن هذه الصفقة واردة في الحسبان؟

■ حديقة تمتد على مساحة كبيرة من الجولان هي ليست بالتأكيد شيئا ستقبله سورية. أما اذا كانت على جزء صغير فربما يمكن التحدث عن ذلك ولكن ليس أكثر منه. العالم يعود للتواصل مع سورية.

– ما هو الشعور في الشارع السوري في هذه الايام؟

■ السوريون أكثر ثقة بأنفسهم الآن، هم ليسوا في عزلة. العالم يعود للتواصل معهم. كما أن تقرير بيكر أوصى بالتفاوض معهم. هناك اصلاحات اقتصادية مهمة. هم معنيون بالتقدم والتحول الى دولة حديثة من الناحية الاقتصادية والعيش بسلام مع جيرانهم. الى جانب ذلك هم متمركزون حول المشاكل الاقتصادية. هناك الكثير من البطالة والفقر في سورية. سورية تمر في مرحلة انتقال نحو الاقتصاد الحر، وهم يتوقعون الرفاه الاقتصادي ويعتقدون أن اتفاق السلام سيُحسن اوضاعهم.

– الجمهور الاسرائيلي مشغول بالخشية من تعاظم قوة ايران أكثر من الأمل بالسلام مع سورية.

■ هناك هجوم وشيك على ايران عسكريا. أنظري الى تزايد الوجود الامريكي في الخليج العربي، وكل المؤشرات تدل على توجهات عسكرية وليس على التفاوض. مع زعيم مثل بوش في الحكم يتوجب علينا الاستعداد لأسوأ الامور. خسارة، لانه بقي له عامان في المنصب، وبامكانه أن يفعل خلالهما ما يشاء. أنا أجد صعوبة في الاعتقاد بأنه معني بالتفاوض. هو لم يُجبل على ذلك.

– أية آثار ستترتب نتيجة هجوم عسكري امريكي على ايران، على اسرائيل؟

■ آثار صعبة على الأمن على المدى الطويل. الجميع يعرفون أن اسرائيل تحت الولايات المتحدة على مهاجمة ايران، وهذا يزيد فقط من كراهية العالم العربي لاسرائيل. لماذا لا تفهمون أن الوقت قد حان لبذل كل ما هو ممكن لتخفيض مستوى الكراهية؟

مودي كرايتمن
(يديعوت احرونوت) ـ 2007/1/19

الخط الاخضر اصبح علامة للتمييز العنصري بدلا من السلام

في الخليل يجري تطبيق قانونين يستفيد المستوطنون منهما

■ بين الردود المثيرة التي صدرت عن وزراء الحكومة، ورئيسها، لرؤية تنكيل مستوطنة تشتم عائلة خليلية، ملاحظة افرايم سنيه: «قوانين الدولة غير مطبقة في المدينة بالسرعة المناسبة، فيما يتعلق بالمواطنين الاسرائيليين في الاساس». كانت أقوال نائب وزير الدفاع تهدف في الحقيقة الى انتقاد عمل قوات الامن في تغليب القانون والنظام في الخليل، لكن يكمن فيها في الاساس قول إن المشكلة ليست «في قوانين الدولة»، بل «في تطبيقها» فقط.

الى أي قوانين واية دولة يقصد نائب الوزير؟ ان الخليل لم تضم الى اسرائيل ويجري عليها في مرأى العين حكم عسكري، بيد أنه في السنة الاربعين للاحتلال يستطيع سنيه أن يتجاهل الدقائق القانونية وان يتناول الخليل كمنطقة ملحقة، كما يجوز أن تُتناول كل بلدة اسرائيلية بل كل سيارة اسرائيلية – او يهودي أيا كان في المناطق – وكأنهم ينتمون الى اسرائيل.

إن أمر وزيرة التربية باعادة الخط الاخضر الى الخرائط المطبوعة في كل التدريس ولد ردودا، تدل على أن كثيرين ممن يؤيدون اعادة التخطيط يؤمنون بوجود فرق جوهري عن جانبي الخط الاخضر: اسرائيل لم تطبق قوانينها على المناطق وراءه (ما عدا القدس وهضبة الجولان).

لا يوجد خطأ اكبر من هذا. الفرق هو في طريقة تطبيق الضم فقط؛ فبخلاف ضروب الضم المعلنة والعامة، كضم شرقي القدس والجولان، حيث حددوا مبدأ ثم طبقوه بتفصيلاته، أخذوا ههنا بطريقة معاكسة: تم الضم على نحو تفصيلي وانتقائي ثم أفضى تراكم تفصيلاته، بعد عشرات السنين، الى ضم كامل، مع الحفاظ على مشهد «عدم تطبيق القانون».

ان الوهم الذي نشأ مريح للجميع. يستطيع معسكر اليسار أن يواصل تورطه بأوهام ان رسم الخط الاخضر يشير الى خيارات مفتوحة وأن السلطة في المناطق "عسكرية"، ولهذا فانها مؤقتة. ويستطيع معسكر اليمين أن يطلب على نحو فظ «تطبيق قانون معلن» وأن يتمتع في هذه الاثناء بالضم الانتقائي، الذي يجري على اليهود فقط، ومن هنا إحكامه.

ان الضم لليهود فقط أحدث نظاما مزدوجا، حُدد فيه الاطار القانوني والقضائي على حسب الهوية القومية للفرد أو الجماعة. ان السكان الذين يُسمون "محليين" يخضعون فقط للقانون الاصلي، كما عُدل بأوامر عسكرية، بآلافهم. اما اليهود فيحفظ لهم الحق في الاختيار. عندما يريحهم الأمر، يكونون مواطنين اسرائيليين على نحو بحت. وعندما يكون الأمر أقل راحة، كما في شؤون الدراسة العليا وقضايا التخطيط المادي في الاساس، يخضعون للقانون المحلي. هذا القانون متخلف عن القانون الاسرائيلي ولهذا يمكن من التلاعب.

ان المواجهة بين المستوطنة وساكنة الخليل الفلسطينية مواجهة بين عالمين لا يلتقيان: فاليهودية تملك جميع الحقوق التي تخولها مكانة مواطنة في دولة حرة، ذات حق في دفاع قوات الامن عنها. وبمقابلتها تقف ابنة شعب محتل، تستحق الدفاع حقا، لكن جيش الاحتلال نسي منذ وقت أن مهمته ان يمنحه «سكانا محميين» على حسب القانون الدولي. أصبح الجيش عصابة مسلحة للمستوطنين وهو ينظر الى المحلي نظره الى جهة معادية.

من السهل ان نعيب على المستوطنة من الخليل قسوتها ومن السهل ان نشير الى المستوطَنة اليهودية هنالك كعصابة من مخالفي القانون العنيفين. لكنهم فقط نبات طفيلي ينمو في الارض الفاسدة لحكم تعسفي يجري وراء الخط الاخضر، في الضفة الغربية كلها. انه حكم يقوم على التمييز والفصل العرقي، ومعايير مزدوجة وغياب سلطة القانون.

أي قانون يريد نائب الوزير «تطبيقه بسرعة»، أقانون المستوطنة ام قانون الفلسطينية؟ في المكان الذي يجري فيه قانون مختلف وتمييزي – على أساس الهوية القومية والشخصية – لا يجري أي قانون. ماذا تتوقعون من جنود ورجال شرطة؟ الا يتأثروا بالتوجيهات التي تأمرهم بالعمل على نحو تمييزي وانتقائي؟ ان الامتعاض من شتائم المستوطنة يصرف الفكر فقط في الواقع الجاري في المناطق وراء الخط الاخضر، والتي تجري فيها حياة طبيعية في ظاهر الامر. لن تطول الايام حتى يطالب بشر ليبراليون لمحو الخط الاخضر من الخرائط، بعد أن تحول من رمز طموح للسلام الى خط يُعلِم مناطق التمييز العنصري.

ميرون بنفنستي
(هآرتس) 19 /1/ 2007

متظاهر اسرائيلي في احتجاج على تصرفات المستوطنين في الخليل

ليأتِ قائد المنطقة وليرَ ماذا يفعل جنوده... يقولون توجد ديمقراطية في اسرائيل!

في قلقيلية جندي اطلق النار على وهيب الديك بدون سبب والجيش يقول انه كان يدافع عن نفسه

■ ما الذي حدث في ساحة المبنى القديم الرائع الذي عمل العامل وهيب الديك في ترميمه وجعل المظلي يطلق رشقة من الرصاص على جسمه ويقتله؟ لماذا دخل الجنود أصلا ساحة المبنى؟ هل رفع الجصاص في الحقيقة حجرا كبيرا على الجنود؟ واذا كان الأمر كذلك هل حُكم عليه بالقتل؟ الموت مقابل حجر؟ سقط الديك ضحية، وتهاوى من أعالي الدرج القديم الى الارض الرملية، بازاء عيني أبيه مصلح الديك، الذاهلتين، وكلاهما عضو في جماعة الجصاصين التي ترمم المبنى في قريتهما بأموال حكومة السويد. كان في السابعة والعشرين عندما مات، وخلف وراءه اربعة اولاد صغار، الكبير بينهم في السادسة والصغير ابن ستة أشهر، وأرملة في الشهر الثالث من حملها. قُطع العمل في مشروع ترميم المبنى الحجري القديم، مرت عدة اسابيع وما تزال بقع الدم لم تُمحَ من الرمل في ساحة المبنى. ما يزال الدم يظهر ايضا على الدلوين اللتين حملهما الديك قبل لحظة من قتله. انه بيت حجري كبير وجميل، مع ساحة داخلية محاطة بالأقواس الضخمة، تحمل زخرفات قديمة فيها، ودرج قديم يصعد الى أعالي الطابق الثاني، الى المكان الذي وقف فيه الجصاص وسقط ليموت. انها خربة في سُرة قرية الديك، غربي اريئيل، بقرب المنطقة الصناعية بركان، يتم ترميمها بأموال «سيدا»، وكالة التطوير الدولية للسويد، وهو مشروع يهدف الى تزويد العاطلين عن العمل في القرية بالعمل وانقاذ دُرة عقاراتها من الخراب. «أطلق الجندي النار ليقتل»، كتب خلدون بشارة، وهو مهندس عمارة المشروع من قبل الشركة المنفذة، «ريفاك»، بغضب. «كان الديك عاملا مخلصا، أسهم كثيرا في عمل الترميم»، أضاف مهندس العمارة، مطالبا بمحاكمة المتهمين بالقتل.

يوجد صالون ضئيل الشأن مزين بالألعاب مع دببة حمراء، وقارب خشبي وصور ياسر عرفات كثيرة في بيت عائلة الديك في قرية الديك. أبواب البيت وجدرانه مثقوبة بالرصاص الذي أطلقه جنود الجيش الاسرائيلي قبل عدة أشهر، عندما بحثوا عن ابن العائلة المطلوب أيمن. صرخ الأب من البيت أن أيمن غير موجود وأطلق الجنود النار. لم يكن أخوه وهيب مطلوبا قط. انه عامل بناء شاب، خرج كل يوم في الصباح مع أبيه وأخيه، مهيوب، الى العمل، وهم مجموعة جصاصين عائلية.

إن نحوا من 25 من أبناء القرية يعملون الآن في تجصيص جدران المبنى القديم، في اطار مشروع الترميم السويدي. في يوم الخميس ايضا، 14 كانون الاول (ديسمبر)، خرجوا صباحا الى العمل. مضوا سيرا على الأقدام، الأب وابنه، مصلح ووهيب، على مبعدة بضع مئات من الأمتار عن بيتهما، ومع وصولهما المبنى ابتدآ يخلطان الجص. لم يأت الأخ الثاني مهيوب في ذلك اليوم. ترمم احدى مجموعات الجصاصين جدران المبنى من الداخل، في حين أن مجموعة اخرى من القرية المجاورة مردة، ترمم الحجارة الكبيرة من الخارج. عندما يكمل عمل الترميم يفترض أن يخدم المبنى مجلس القرية، وهو واحد من أكثر مباني المجلس فخامة في ارض اسرائيل الجميلة، فيه 14 غرفة لا يسكنها أحد منذ عشرات السنين. هدف المشروع السويدي الى تزويد المجموعات الضعيفة في القرية في الأساس بالعمل، لهذا يعمل في الترميم غير قليل من العمال الشيوخ وغلام متخلف عقليا ايضا.

حوالي العاشرة والنصف صباحا سمع العمال أن الجنود دخلوا القرية. كانت تلك بالضبط ساعة الاستراحة في المدرسة ويبدو أن الطلاب رموا سيارتي جيب للجيش الاسرائيلي بالحجارة. فجأة دخلت مجموعة جنود ساحة المبنى القديم، من الباب الخشبي الكبير، لتطارد رُماة الحجارة كما يبدو. يقول العمال في الموقع، الذين يقفون الآن في ملل، وبلا عمل، انه لم يهرب أي من رُماة الحجارة الى الساحة. لا يمكن رمي الحجارة الى الشارع من داخل المبنى القديم لأن النوافذ والسطح غير مشرفة على الشارع. لا يمكن الهرب ايضا من داخل الموقع، إلا عن طريق الباب الخشبي الرئيسي، لعدم وجود أي مخرج آخر.

يقول مصلح أنه دخل الساحة ما بين ستة الى ثمانية جنود. وقف الجنود على المدخل، تحت السقف الحجري، واستمر جندي واحد فقط نحو الساحة، الى المكان الذي وقف فيه العمال، تحت الدرج الذي وقف عليه وهيب. سأل أحد العمال وهو في الخامسة والاربعين الجنود عما يبحثون وقال أحد الجنود انهم يبحثون عن رُماة الحجارة. بعد ذلك حدث كل شيء في لحظة.

وقف وهيب في رأس الدرج العالي، والجندي في الأسفل في الساحة. يقول مصلح إن ابنه كان يمسك دلوين من الجص، وخليطا من الرمل وجص للتجصيص، بيديه. جاء عن الجيش الاسرائيلي في الغد أن وهيب أمسك حجرا كبيرا، يهدد باسقاطه على الجندي في الساحة. وقف مصلح على مبعدة عدة أمتار عن الجندي، وابنه على الدرج في الأعلى.

وكان المؤذن يُرخم صوته، واصوات القرية في الخلفية. يقول مصلح إن الجندي بدأ يطلق النار على ابنه فورا، بغير تلبث وبغير تحذير، موجها بندقيته الى الأعلى، الى أعلى الدرج، مباشرة الى جسم وهيب. كان البعد بينهما أمتارا معدودة، كعلو الدرج. قرر تقرير المستشفى في رام الله، الذي نُقل اليه الميت آخر الأمر، أن ثلاث رصاصات مزقت جسم الجصاص، اثنتين في صدره وواحدة في يده اليمنى. يقول العمال انهم جمعوا 13 رصاصة فارغة في الساحة. هوى وهيب فورا من أعلى الدرج الى الرمل. كانت عيناه مفتوحتين، وسال الدم من صدره، عندما أسرع أبوه اليه. «لماذا أطلقت النار عليه؟» صاح أحد العمال، وأسرع الجندي الى الخروج مع رفاقه. حمل مصلح ابنه المحتضر الى الخارج، متوسلا الى الجنود أن يستدعوا سيارة اسعاف، ممسكا بيد واحد منهم، لكنهم كما يقول أسرعوا الى دخول سيارة الجيب والابتعاد عن المكان، تاركين اياه ووهيب على الشارع. أخذت سيارة تجارية لحانوتي القرية الذي استُدعي الى المكان – لا يوجد في القرية طبيب، أو عيادة أو سيارة اسعاف – الاثنين نحو رام الله. بقرب جامعة بير زيت انضما الى سيارة اسعاف، لكن عندما وصلا المستشفى الحكومي في رام الله لم يبق للطبيب، الدكتور محمد وهدان، إلا أن يقرر الموت. «الكلب أفضل من هذا الجندي»، يقول الأب الآن هامسا.

«في الرابع عشر من كانون الاول (ديسمبر) قتل الجيش الاسرائيلي أحد عمالنا في مشروع الترميم في الديك»، كتب مهندس العمارة بشارة بعد ايام من ذلك الى منظمة «بتسيلم». «قبل أن قتله الجنود بثوان أمروا العمال الذين وقفوا في الطابق الارضي أن يبقوا ساكنين، لكي ينزل وهيب عن السطح وبعد ذلك أطلقوا عليه النار بلا تحذير. قُتل وهيب على السطح إزاء عيني أبيه، الذي عمل معه في المشروع. فقد وهيب حياته قبل أن يصل الى العلاج الطبي. يُبلغ شهود عيان عن أن هذا كان قتلا بدم بارد، وأن الجنود كانوا يستطيعون اعتقال كل واحد في موقع البناء، لانه يوجد للموقع مدخل واحد فقط ولا يمكن الهرب منه. لم يحاول العامل وهيب الهرب وهو نقي من جهة أمنية وغير مطلوب.

«قال لنا العمال إن الجندي الذي قتل وهيب عرفه، لانه دخل قبل يومين من ذلك بيته وبحث عن أخيه. يستطيع العمال في الموقع تعرّف الجندي الأسمر. نحن في «ريفاك»، الشركة التنفيذية للمشروع، الذي توقف بسبب الجيش الاسرائيلي وقتل أحد عمالنا، نطلب منكم أن ترفعوا دعوى باسمنا على الجندي الذي نفذ الجريمة، وعلى الضابط المسؤول وعلى الجيش الاسرائيلي المسؤول عن نشاط جنوده. نحن مستعدون أن نبذل لكم كل معلومة ذات صلة بالحادث».

جاء عن ناطق الجيش الاسرائيلي هذا الاسبوع: «في الرابع عشر من كانون الاول (ديسمبر) رمى فلسطينيون الحجارة والطوب نحو قوة للجيش الاسرائيلي في الديك، جنوبي غربي قلقيلية. رأت قوة من الجيش الاسرائيلي قامت بدوريات تمشيط في المكان فلسطينيا وفي يده طوبة أراد أن يقذف بها القوة من نقطة عالية وبهذا عرّض حياة الجنود للخطر. أطلقت القوة عليه النار ورأت اصابة. ابتدأت القوة تعطي الفلسطيني علاجا طبيا، وبمقابلة ذلك استمر فلسطينيون في رمي القوة بالحجارة. مع وصول سيارة اسعاف الهلال الاحمر نقلت القوة الجريح ليعالجه الفريق الطبي. يظهر من تحقيق أُجري في الجيش الاسرائيلي أن الجنود عملوا وفق الأوامر والتوجيهات من اجل الدفاع عن حياتهم».

في ساحة البيت، تخبز الأرملة منيرة الخبز في الطابون وهي تلبس ملابس حدادها السوداء، وأولادها يجرون حُفاة بقربها، أُسيد ابن السادسة، وأسيل ابن الخامسة، وسالي ابنة الثالثة وقيس ابن الستة اشهر. انهم أيتام. ننزل على أقدامنا في منحدر الشارع نحو المبنى القديم. وقف الجنود قبل أن يدخلوا الموقع بقرب لافتة مشروع الترميم السويدي.

المنظر الذي يتكشف في الداخل رائع. يستعيد الأب أمامنا اللحظات الأخيرة من حياة ابنه. فهنا خلط الجص، وهنا ملأ الدلاء بالجص، وهنا وقف وهنا سقط. وهو يمثل أمامنا كيف لم يكن في الامكان رمي حجر من المكان الذي وقف فيه، بسبب القوس الحجرية التي كانت فوق رأسه وقيدت حركته. أرتاب في أن يكون هذا شرحا مقنعا. يحفر أحد العمال في الرمل ليُبيّن آثار دم اخرى. وهنا ايضا آثار اطلاق النار في الحجارة القديمة على السطح، في المكان الذي وقف فيه وهيب.

«لنقل إن وهيب كان في يده حجر، كان يمكن اطلاق النار على رجله»، يقول الأب. «ولكن قتله كقط؟ كفأر؟ ليأت قائد منطقة المركز ليرَ ماذا يفعل جنوده. أخذ الله الجندي الذي قتله، يقولون توجد ديمقراطية في اسرائيل. ويقولون إن ذلك حسن، لكنه ليس انسانا، انه كلب ذلك الجندي. يقول بعضهم انهم يُسمون الجندي آساف، لكنه ليس انسانا البتة، البتة».

جدعون ليفي
مراسل مختص في حقوق الانسان
ملحق (هآرتس) ـ 2007/1/19